سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تراثنا

الشعر العماني

تأليف
الدكتور محمد سعيد عبد الحليم

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٢١٠٢
الرقم الخاص : ٨١١

اعداد
محمد كامل

العدد ٦٤

القسم الأول

بواعث الشعر فى عمان

كان الشعر دائما فن العرب الأول ، وديوان مفاخرهم ، وسجل تاريخهم ، ومعرض إبداعهم .

وعمان بلد عربى عريق فى أصالته ، بل توفر له — بحمد الله — هذا مجد تليد متواصل بكيانه كما هو ، ويحق له أن يباهى به عن جدارة . وأنا حين قرأت مقدمة القاضى سالم ابن حمود بن شامس لكتابه « العنوان عن تاريخ عمان » ورأيته يقول : الحمد لله الذى جعل عمان من أعظم الأقطار الاسلامية العامرة وجعل أهلها من العروبة فى صميم الأمم القحطانية والعدنانية الباهرة ... وقوله : وإنى إذ أقول ما أقوله عن عمان ، فى هذا العنوان وغيره من البيان ، أقوله تعبيرا عن الحقائق وتحريرا للوثائق — حين قرأت إذا قلت : صدق القاضى حقا . وليحدث عن عراقة عمان ولا حرج وهى عراقة مستمرة فى كيان هذا البلد . فمن بين جميع البلدان العربية المشرق العربى ، إذا تأملت منذ بدء الاسلام (حتى دون الرجوع الى ما قبل ذلك) : أى البلاد قد احتفظ الى يومنا هذا باسمه كما هو ، وبكيان قامت فيه دول متتابعة ، فانك لن تجد إلا بلدين اثنين فقط : وهما عمان واليمن .

وهذا بعد تاريخى وحضارى عميق ، وخصوصا فى أمة كالامة العربية • وسترى فيما بعد ، كيف يبرز أثر هذا فى الشعر العمانى • وعند العرب سارت العراقة جنبا الى جنب مع الشعر •

ومن يطلع على تاريخ عمان يدرك أن هذا البلد زاخر مع هذه العراقة — بالأحداث التاريخية ، وخصوصا ما يحرك قوى بواعث الشعر منها ، وهو الحرب والبلاد فيها •

ومنذ البدء أدرك نقاد العرب أثر البيئة فى الشعر • وفسر ابن سلام الجمحى فى (طبقاته) مثلا ، قلة الشعر فى الطائف ومكة قبل الإسلام بقلة الحروب « لأن الشعر إنما يكثر بالحروب كحرب الأوس والخزرج ، ولذا قل الشعر بين قريش إذ لم يكن بينهم ثائرة ، لم يحاربوا » •

كذلك فالى جانب العراقة ، ووفرة الأحداث المحركة للشعر ، قد توفر لأهل عمان حاسة هى ألزم الحواس لخلق الشعر والابداع فيه ، ألا وهى الحاسة الفنية •

فالذوق الفنى لدى أهل عمان يدركه دون وهلة من يتصل بالعمانيين • وحين كنت أنظر فى مكتبة كليتنا بلندن لفت نظرى إعجاب المؤلفين الانجليز ممن كتبوا عن عمان بالذوق الفنى

لأهلها • فمثلا فى الكتاب الذى ألفه المستر دونالد هولى عن عمان ترجم الى العربية نجـد وصفا طويلا لهذا عند حديثه عن الثقافة والتراث •

وقد لاحظ أن العمانيين مصممون بالفطرة ، فلا توجد آلة واحدة أو شغل يدوى إلا وجعلوا منه شيئا بديعا ، مضفين عليه طابعهم الخاص • ففى الخشب ، والفضة ، والذهب ، كما فى الجص والطين ، أو القماش أو الخرز ، أو خيـوط الـذهب والفضة ، وفى إعمار المساكن ، أو بنـاء السفن ، وفى صناعة الآلات ، والحلى ، والأسلحة ، تجـد القصة ذاتها : الاحساس بالتصميم هو الذى ينتصر » •

ومن الأوصاف المسهبة تدرك أن الشغف بالتصميم والولع والتزيين تبرز فى كل ما يتناوله العمانى ، يرضى بهمـا حاسته الفنية ، يبتغى أن يراهما الآخرون •

فتزيين باب الدار مثلا عنوان أمام الناس على الدار ومن فيها وهو يخدم وعيا فنيا عاما فى المجتمع • وأحب أن أصل القارىء أيضا على الوصف الرائع الذى كتبه ألن فيليرز لسفينة عمانية فى كتابه (أولاد السندباد) ، واقتبسه المستر هولى

فى كتابه عن عمان ، وسيتبين بجلاء إدراك الأجانب للذوق الفنى الأصيل والبديع عند أهل عمان .

والآن وقد تحدثنا عن عراقة عمان ، وعن وفرة بواعث الشعر فى تاريخها وأحداثها ، وأصالة الـذوق الفنى اللازم للانتاج الشعرى عند أهلها — أقول عند هذا الحد إنى كقارىء عربى أجـد نفسى أمام لغز محير .

القسم الثانى

مدى ما يعرفه غير العمانيين عن شعر عمان

فمع توفر هـذه الدواعى كان المتوقع أن تنتشر خارج عمان مجموعة كبيرة من دواوين الشعر العمانى والدراسات الأدبية حولها ، وأن يكون القراء العرب على علم بهذا الرافد العظيم من روافد الشعر العربى العام .

ومنـذ أيام سألت ناقدا عربيا بارزا يكثر من الأسفار والاتصال بأدباء البلاد العربية ، عن رأيه فى شـعر عمان ، فأجاب بأنه للأسف لا يعرف عنه شيئا . ومنذ حوالى عشرين سنة فقط نشر سليمان وأحمـد ابنا محمد السـالمى ديوانى الستالى والسلطان سليمان بن سليمان النبهانى كباكورة لتعريف القراء العرب بالشعر العمانى .

وقد لاحظ النقاد من قبل تعصب بعض كبار الكتاب العرب فى الماضى وانصرافهم عن الأدب الإباضى وخلطهم بينـه وبين ما كتبه الخوارج بفئاتهم المختلفة ، عن وهم وتحامل . فقد لوحظ مثلا تحامل أبى الفرج الاصبهانى مؤلف كتاب الأغانى ، وعدم اشارة ابن قتيبه وابن سلام الى شىء من ذلك الأدب .

وعوق هذا انتشار المعرفة بالأدب العمانى • كذلك ذكر ناشرا ديوان الستالى فى مقدمته أن الأدب العمانى فى العصور المتأخرة « كان مغلقا على نفسه شبه مجهول » فظل بمنأى عن تناول القراء العرب •

ومن ناحية أخـرى إذا نظرنا الى بعض مجمـوعات المخطوطات فى عمان لا نجد تفسيرا شافيا للغز الذى تحدثنا عنه من قبل •

ففى سنة ١٩٧٨ نشر زميلى الدكتور ركس سميث تقريرا عن بعض المخطوطات التى اطلع عليها فى مسقط سنة ١٩٧٦ وكانت تحتوى على ١٤٣ مخطوطا • وبتحليلها نجد أنه كان من بينها حوالى ١٠٠٠ مخطوط فى الفقه ، وليس هذا بغريب فى بلد لـه تاريخ حافل فى الفقه الاباضى •

يلى ذلك مائة مخطوط ومخطوطان فى النحـو واللغـة والقواميس ، ثم ٨٤ مخطوطا فى القرآن ، ثم ٧٧ مخطوطا فى الشـعر •

ونجد ٤٤ مخطوطا فى التاريخ والسير وليس هذا بغريب أيضـا مع احسـاس العمانيين الشديد بالتاريخ والانسـاب

والعراقة ، ثم ٤١ مخطوطا فى التفسير ومثلها فى الحديث ثم اعـداد أقل فى فروع المعرفة الأخرى .

لكن مخطوطات الشعر ، وعددها سبعة وسبعون كمـا قلنا ، تسعة أعشارها لشعراء غير عمانيين وهـذا على الأقل يطلعنـا على ما كان يقرؤه الناس فى عمان . لكن لا يبقى إلا سبعة مخطوطات لدواوين هى فيما يبدو لشعراء عمانيين .

فكيف نفسر قلة الموجود من الانتاج الشعرى ؟

لقد اقترح البعض أن كثرة الحروب فى المـاضى ترتب عليها ضياع كثير من الانتاج ؟ لكن إن صح هذا فكيف ضاع أكثر الانتاج الشعرى دون غيره ؟

ولقد أحسست من بعض العبارات التى جاءت فى كتب التاريخ والأدب تواضع بعض أدباء عمان — بسبب شعورهم الدينى القـوى — فهم لا يريدون أن ينسبوا لأنفسهم أنهم شعراء حتى وان ظهرت لهم بعض النماذج الشعرية الجيدة ، ولمـا لهم من الجـد والاستقامة والبعد عن الادعاء اتجهت قريحتهم إلى الانتاج فى ميادين أخرى كعلوم الدين والتاريخ .

لكنى أعود فأقول إن الأدباء والدارسين العمانيين أنفسهم

هم الذين يستطيعون أن يفسروا لنا لغز قلة الموجود من الانتاج الشعرى العمانى مع كثرة الدواعى كما شرحنا من قبل .

ومهما يكن من شىء فان القراء العرب ينتظرون مزيدا من نشر المخطوطات .

وزيادة النشر كفيلة بأن تبرز للناس مزيدا من الشعر العمانى الذى لابد أنه موجود ، فالشعر خالد ، والدهر — كما قال القاضى الفاضل الأديب ووزير صلاح الدين — عاجز عن القضاء على الشعر .

ومن يقرأ كتاب (الفتح المبين فى سيرة السادة آلبوسعيديين) يجد فى بعض الأمثلة شعراء يتحاثون على قول الشعر فى مساجلات شعرية كانت تزيد إنتاج الشعر . ويجد أبياتا يذكرها صاحب الفتح المبين لشعراء ولابد أنهم كتبوا غيرها مما لا يزال فى المخطوطات .

كذلك لا يمكن أن نتصور أن للشعراء الذين نعرف لهم انتاجا كبيرا كانوا يعيشون فى فراغ وحدهم ، والأقرب الى المعقول أنهم كانوا جزءا فى حركة أدبية أوسع منهم .

ومنذ نيف وعشرين سنة فقط بدأت حركة النشر بخطى

وئيدة • ومن حسن الحظ أنها سارت على نطاق واسع فى عهد جلالة السلطان قابوس الميمون • وقد قرأت على غلاف كثير من المطبوعات أنها طبعت على نفقة جلالة السلطان • ونشطت وزارة التراث القومى والثقافة نشاطا كبيرا فى النشر مما يبشر بازدهار عظيم فى الانتاج الأدبى والثقافى فى السلطنة يواكب حقا ماضى عمان المجيد •

وإذا كانت معرفة جمهرة أدباء العرب بالشعر العمانى لم تزل محدودة كما ذكرنا ، فانى عجبت أيضا حين وجدت الكتب الانجليزية التى تتحدث عن عمان وثقافتها ، وما لأهلها من ذوق فنى ، لا تشير بكلمة واحدة فى أدب عمان •

فمع الاسهاب الجيد الذى جاء فى كتاب المستر هولى من فن العمانيين لم يذكر كلمة واحدة عن أدب العمانيين أو شعرهم • هذا وضع غير سليم نرجو أن يتم تصحيحه أيضا عن قريب •

القسم الثالث

الشـــعر العمـــانى

أما حديثى اليوم فينبنى على ما أتيح لى الاطلاع عليه من الشعر العمانى وهو بالضرورة اطلاع محدود • فمصادر الشعر العمانى غير موجـودة فى المكتبات فى الغرب • وكان اطلاعى كما يلى :

أولا ــ ديوانان مطبوعان كانت وزارة التراث القومى قـد تفضلت فأرسلتهما الىّ وهما :

ــ ديوان أبى بكر أحمد بن سعيد الخروصى الستالى المتوفى سنة ٥٧٦ هـ ، والمطبوع سنة ١٩٦٤ م •

ــ ديوان السلطان سليمان بن سليمان النبهانى المتوفى سنة ٩١٥ هـ ، والمطبوع سنة ١٩٦٥ م •

ثانيا ــ ديوانان مخطوطان هما :

ــ ديوان سعيد بن محمد العشرى الخروصى الذى تم نسخه لابنه سنة ١١٩٣ هـ •

ــ ديوان سبايك اللجين لحميد بن محمد بن رزيق المتوفى سنة ١٢٩١ هـ •

ثالثا ـ قصائد متفرقة فى بعض كتب التاريخ التى استعرتها من زميل انجليزى كان قد زار عمان • وذلك مثل :

ـ الفتح المبين فى سيرة السادة آلبوسعيديين لابن رزيق والمطبوع سنة ١٩٧٧ •

ـ تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للعلامة نور الدين عبد الله بن حميد السالمى المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ ، والمطبوع سنة ١٩٧٤ •

وأحب أن أقول أن القصائد الموجودة فى كتب التاريخ هامة جدا ، وحبذا لو نشر كثير من هذه الكتب فهى فى ظنى ستتيح لنا ثروة وافرة من الشعر العمانى ، **أولا** لأن العمانيين لاحساسهم بالعراقة والبعد التاريخى لأصولهم قد كتبوا كثيرا فى التاريخ والسير والانساب • **وثانيا** لأن مثل هذه القصائد موضوعة فى سياقها التاريخى وترتبط عادة بأحداث هامة وشعرها أحرى بأن يكون قويا •

كذلك اطلعت على مؤلفات العلامة أبى محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ •

وسأتحدث فى هذا المجال عن بعض السمات العامة للشعر العمانى فمن أوضح ما يواجه المطلع على هذا الشعر ، أن

العمانيين كانوا صادقين تماما مع أنفسهم ، سواء فى الأغراض الشعرية التى طرقوها والأغراض التى تركوها ، وكذلك فى المعانى التى تناولوها .

وهذه صفة فريدة فى شعرهم إذا قارناه بشعر غيرهم من شعراء البلاد العربية . فتقاليد الشعر العربى — كما نعلم — قاهرة فرضت نفسها عبر العصور والاجيال على شعراء البلاد المختلفة فساروا فيما أملته عليهم ، وان لم يكن فى بيئتهم ما يبرره أو يستدعيه .

والمطلعون على النقد الأدبى فى أوائل هذا القرن يذكرون مثلا ، أن الناقد عباس محمود العقاد كان يعيب على شوقى ومدرسته فى الشعر انهم كانوا يقلدون فى مطالع القصائد وأغراضها ومعانيها وترتيب أبياتها تقاليد شعراء شبه الجزيرة قبل مئات السنين وان لم يعيشوها أبدا فى حياتهم الخاصة .

ولا نجد الشعر العمانى الذى بين أيدينا قد طرق موضوعات الهجاء الشخصى ولا الاسفاف ولا الخمريات ولا الفحش والمجون . وكان الشعراء فى هذا صادقين مع أنفسهم فقد نشأوا فى بيئة دينية ورثت تقاليد (الشراة) التى تجافى ذلك ، وتلتزم الجد والاحتشام واللياقة ، وتتحرج من الاندفاع

وراء اللهو ، حتى ما كان منه مباحا بتقاليد الشعر فى البلاد العربية الأخرى •

ونحن نعلم أن (الشراة) كانوا ينفرون من المدح غير الصادق الذى لا يهدف إلا الى التكسب بالشعر وقد قال قائلهم :

أيها المادح العباد ليعطى
إن الله ما بأيدى العباد

فاسأل الله ما طلبت إليهم
وارج فضل المقسم العواد

لا تقل فى الجواد ما ليس فيه
وتسم البخيل باسم الجواد

وسنرى لون المدح الذى نظم فيه شعراء عمان وبأى الصفات كانوا يمدحون • وقد أكثروا أيضا فى الفخر ووصف المعارك الحربية والرثاء • وكثير من رثائهم كان للقضاة والعلماء والاخوان ونظموا فى الغزل العفيف والتوجع وفى المدائح النبوية والتوسل والتضرع الى الله والمواعظ والنصائح • ونجد الى جانب ذلك قدراً كبيرا من نظم العلوم •

ومعانى الشعر لدى العمانيين تميزهم تماما بإخلاصهم

لمبادئهم ، وهى تطبع ما يقولون بطابع لا تخطئه العين • وأصدقكم القول انى عندما قرأت أول سطر من إنتاج عمانى رأيته وكان مقدمة شاعر لديوانه قلت على الفور : هذا كلام فقيه إباضى — لا لأن الرجل كان يتحدث فى الفقه أو فى الاباضية بل لأن الروح حية سارية فى صميم كلامه •

ولنتذكر هنا أن الشعر الذى نتحدث عنه هو من الفترة التى كان يطلق النقاد عليها « فترة التقليد » وكانوا يلاحظون ان كلام الشعراء فيها عام متشابه لا تحس فيه « شخصية » وتستطيع أن تنسبه لأى شاعر فى أى مكان عربى — فاذا اطلعنا على شعر عمانى لـــه شخصية تميزه ويدركها القارىء بوضوح كان هذه ميزة هامة وكسبا للشعر العربى كله فى تلك الفترة •

قلنا سابقا إن عمان ضد تميز بأنه احتفظ من عصور طويلة باسمه كما هو ، وبكيان قامت فيه دول متتابعة ، وأن لهـذا قيمته التاريخية والحضارية فى تعميق الجـذور والاحساس بالأصالة والعمق الحضارى ، خصوصا فى أمة كالأمة العربية ، وهذا يفسر لنا فترة الاهتمام بالتاريخ والأنســاب لدى أهل عمــان •

ونقول هنا انه يفسر أيضا أهمية أصالة النسب وعراقته فى قصائد المدح والفخر والرثاء لدى شعراء عمان ، فهى نغمة

مستمرة لا تخطئها فى أية قصيدة • وهذه الأغراض الشعرية أغراض عربية أصيلة ، وهى التى عمقت المثل والأخلاق العربية العريقـــة •

ولقد تغير الذوق لدى بعض شعراء ونقاد « التجديد » فى كثير من البلاد العربية فى الوقت الحاضر وأصبحت هـــذه الموضوعات لا تروق لهم لأنهم يرون أنها لا تليق بالشعر فى عصرنا الحاضر • ولكن غاب عن هؤلاء قيمة قصـــائد المدح والفخر والرثاء وأثرها كما قلنا فى تعميق المثل العربية الأصيلة والخلال والصفات العريقة وما أصدق قول الشـــاعر العربى حين قال :

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى بناة العلا من أين تؤتى المكارم وقد سن الشعر العربى تلك الخلال بقصـــائد المدح والفخر والرثاء وغيرها • وطالمـــا كانت تلك الخـــلال حميدة فلا غبار على قصائد المدح والفخر والرثاء من وجهـــة النظر الدينية ، ولا جناح على الشاعر الصادق فيما ينظم منها بل ان الشاعر الذى يحس بالدافع الى قرض الشعر فى المديح والفخر والرثاء ثم يكتم احساسه لكى يتظاهر بأنه من « المجـــددين التقدميين » هو كاذب بمقاييس الفن ، ومنافق مراء بمقاييس الدين والأخلاق • والشـــعراء العمانيون كانوا صادقين حين

أحسوا بالدافع الى النظم فى المدح والفخر والرثاء ونظموا فيها.

ومنذ عهد قديم أكد الشعراء العرب أهمية عراقة النسب فى تخليد صفات النبل والمجـد والكرم تتوارثها الأجيال وقال زهـير :

وما يكُ من خير أتـوه فانمـا
توارثه آبـاء آبائهم قبـلُ

وهل ينبت الخطىّ إلا وشيجـه
وتغرس إلا فى منابتها النخل

وكما قلنا يردد شعراء عمان دائما أهمية عراقة النسب : نقرأ فى (العنوان عن تاريخ عمـان) : « لمـا توفى السلطان فيصل جلس على عرش المملكة العمانية السيد تيمور بن فيصل ابن تركى بن سعيد بن سلطان بن الامام أحمد أصيل هـذه الشجرة :

فاعتلى العرش نجله الليث تيمور « وتيمور ملتقى العلياء وحفيد الملوك بطنا وظهرا وعظيم الخؤولة الشـماء » وفى (الفتح المبين) نقرأ فى مدح السيد الهمام أحمد بن سعيد بن الامام أحمـد :

نجل الامام السيد المولى سعيد بن الامام القرم أحمد ذى المنن البوسعيدى الكمى ومن له خضعت نزار وقد أطاعته اليمن ينميه من قبل الخؤولة تبع فى الناس فخرا وهو ذو فخر ومن • ويفتخر السلطان سليمان بن سليمان النبهانى فيقول :

من عيص هود الله دوحتى التى من دون محتدها النجوم الطلع • يقول :

ابن نبهان ابن عمرو بن كهلان سليل النبى ذوى الأفضال

ومؤلف كتاب (الفتح المبين) ينظم قصيدة يذكر فيها نسب بنى خروصى فى أبيات طويلة يختمها بقوله :

ويعرب قحطان أبوه وجده
لك الله ، هود وهو للعد تمما
عليه وخير العالمين محمد
إله السما صلى عليه وسلما

وفى قصيدة أخرى يتحدث عن نسلهم ويختم بقوله :

قالت نعم ، ولهم سيما بأوجههم
وهمة سمكت فى ساعة الباس

عرق الكرام لهم قد دس مكرمـة
والعرق إن مـر دهر أى دسـاس
مـا فى ندبهم لغـو ولا هزل
إلا التلاوة من صدر وكراس

فمدح هؤلاء الشعراء صادق فى التعبير عن عراقة الأصل وعن الصفات الحميدة بمقياس القيم العربية والاسلامية .

وفى المدح والفخر والرثاء والوصف نجد نفس التركيز على صفات البطولة والبلاء فى الحرب .

والواقع أن صفة الشجاعة والبطولة والبلاء فى الحرب أتى فى المقام الأول فى مستوى القيم العربية .

وقد رأينا أن من أسباب التركيز على عراقة النسب أنها تورث صفات الشجاعة والبطولة والاقدام . وفى القرن الرابع الهجرى لخص الناقد قدامة بن جعفر الصفات الأساسية للمدح التى ينبغى على الشعراء أن يمدحوا بهـا فقال إنهـا العقل والشجاعة والعدل والعفة . لكن الواقع أن أضمن سبيل لبلوغ المجد والخلود فى التاريخ العربى كله هو الشجاعة والبطولة والدفاع عن الحمى .

وجاء الاسـلام فرفع الجهاد فى سبيل الله الى أعلى الدرجات ، والله يقول : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة » وجعل النبى صلى الله عليه وسلم « ذروة سنام الاسلام (أى أعلى نقطة فيه) الجهاد » • ولهذا نال المعتصم بالله العباسى وسـيف الدولة الحمدانى وصلاح الدين الأيوبى درجة عليا من المجد وخلود الذكر •

وفى هذا المجال الفريد جـاء دور عمان أيضـا وتغنى شعراؤها فيه باسهاب •

ونستطيع أن ندرك أن العمانى لـه ولع بصفة الرجولة وشارات القوة ووسائل الدفاع والبلاء فى القتال • وإلا فبماذا نفسر ما نقرؤه من أن الخنجر العمانى هو الشارة المميزة للرجل العمانى ؟ ثم ذلك الشغف بصنع الخناجر فى عمان وتزيينها والزهو بلبسها ؟

نقرأ أيضا أن العمانيين اعتادوا منـذ أجيال عديدة أن ينظروا البنادق على أنهـا سلاح وزينة وهواية من الهوايات الممتعة ، وقد أصبحت البندقية نتيجة لذلك علامة من علامات الرجولة وشارة من شاراتها المميزة » •

ويجب أن نتذكر أيضا كثرة الحصون والقلاع الضخمة والبروج المشيدة فى عمان ، كثرة لا نجدها فى البلاد المجاورة . وهذا شاهد على أن توقع الهجوم ، وأن التحصين والاعداد للقتال وأن الدفاع والحروب قد ظلت من أهم ما يشغل هـذا الشعب ويشكل حياته .

وأنا — كقارىء عربى — فرحت حـين رأيت كتـاب (تلقين الصبيان ما يلزم الانسان) لعبد الله بن حميد السالمى . فهذا كتاب للصبيان وانك لتعجب حين تطلع على ترتيب أبوابه . فالمؤلف يتحدث فى مقاصد الكتاب عما يجب على الانسان من الاعتقاد ثم الصلاة ثم الصوم .

وقبل أن يتكلم عن الزكاة والحج يتحـدث عن حقـوق الوالدين والأولاد والرحم والجـار والصاحب فى السـفر والصاحب فى العلم وحقوق الضيف (قلت : أكرمكم الله يا أهل عمان إذ تعلمون صبيانكم هذه الحقوق) ثم يتكلم عن الزكاة والحج ثم — وهنا محل العجب — الجهـاد .

وأرجو أن تعودوا من جديد الى قراءة التمرين الجميل الذى يتبع به المؤلف باب الجهاد . ويختتم ببيان ما يجب على الانسان تركه من عمل بدنى وخلق نفسانى . فهذا المنهج الدراسى فى تلقين الصبيان له مغزاه العميق فى ثقافة العمانيين ، ولم

نر الصبيان فى البلاد العربية الأخرى يدرسون مثل هذا المنهاج .

واقرأوا ما شئتم من قصائد المدح والفخر فى الشعر العمانى تجدوا الحديث عن الشجاعة والبطولة والبلاء فى الحرب يأتى فى المقام الأول لدى المادح والممدوح والمفتخر والذين يسمعون قصائد المدح والفخر .

فمؤلف كتاب (العنوان عن تاريخ عمان) يتحدث عن حصار صحار فى عهد الامام أحمد بن سعيد ، وبطولة الامام وآثار ذلك فيقول (ص ٣١٠) :

« فبنى ذلك من دولة أحمد بن سعيد أقوى البناء .

وماذا فعل أحمد بن سعيد ، الامام الجديد ، والسلطان الرشيد ، فى الانتصاف لأهل عمان من عدوهم ؟ ... لقد رمى أحمد بن سعيد رمية فرق بها العديد ، ومزق بها الجمع ، وشتت بها الشمل ، وقضى بها على العدو القضاء المبرم ، الذى لم يبق من قوته شيئا . والى ما قلناه يشير شاعر الدولة البوسعيدية ، حيث يقول :

طوقت بالجيوش حصن صحار
تحت نار المدافع الرعناء

وقف الشهم أحمد بن سعيد
وقفة الليث مفعما بالإباء

لم تزده الحروب إلا وقارا
فهو كالطود فى عيون الرائى

قابل الخطب بالثبات وأبلى
فى قتال الأعداء أى بلاء

قدرته عمان تقدير حق
وكذلك التقدير للأمناء »

وسعيد بن محمد العشرى يخاطب الامام أحمد بن سعيد ابن أحمد البوسعيدى فيقول :

قل للامام بلغت المجد غايته
بوركت من سيد فى العالم البشر

الله أكبر إن الحق متضح
وحصحص الحق للبادين والحضر

خاطرت بالنفس حتى إن رقيت
على هام الثرياوان المجد فى الخطر

ولجت باب العلا لما جعلت له
مفاتح البيض والخطية السمر

ويفتخر السلطان سليمان بن سليمان النبهانى فيقول :

وأروّى السنان بن أغمد القرن
بهام القرون والأبطال
واذا عقب الشجاع عن الفيلق
أو راعه بريق النضال
خضت آذيه بمنصلت الخدين
خوض الغضنفر الرئبال

وله قصيدة طويلة فى وصف الخيل وصفا رائعا . والخيل من عدد البطولة ، وفى الحديث الشريف : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . كذلك نجد فى (تحفة الأعيان) قصيدة طويلة اسمها « الخيلية » وهى طريفة تذكر أسماء الخيول التى ملكها الامام سيف بن سلطان .

ويقول حميد بن محمد بن رزيق فى ديوانه يمدح السيد الوالى سعيد بن خلفان بن أحمد البوسعيدى :

السعيد امرؤ يرجى السعيدا
لندى أو وعى يشيب الوليدا

فهـو غيث اذا الديار اضمحلت
واغتـدى ربعهـا المروض بيـدا
وهـو ليـث اذا تزأرت الأسـد
بحـرب وفارق الهـام جيـدا
عزمه فى الهيـاج والقلب والسيف
حـديد بـه يغـل الحـديدا

والعمانيون أيضـا مولعـون برواية قصص البطـولة والشجاعة • ونجـد حميد بن محمد بن زريق فى (القصـيدة القدسـية النورانية فى مناقب العدنانية) يروى بولع قصـة المعتصم بالله وفتى العمورية سنة ٢٢٣ هـ فيقول : إن رجـلا وقف على المعتصم فقـال أمـير المؤمنين ، كنت بعمورية فاذا جارية من أحسن النساء قد لطمها علج على وجهها (أى أحد نصارى الروم) فصاحت : وامعتصماه ! فقال المعتصم للرجل : عمورية فى أى جهة ؟ فأشار الرجل على جهتها ، فرد المعتصم وجهه اليها وقال : لبيك أيتها الجارية ، هذا المعتصم قد أجابكِ • وسار فى جيش من أثنى عشر ألف فارس •

فبعثت اليه الروم أن المنجمين عندهم يجدون فى كتبهم أن عمورية لا تفتح إلا فى وقت نضج التين والعنب •

ولكن المعتصم فتحها وقتل من جند الروم تسعين ألفا ، كما جاء فى قصيدة أبى تمام الذى خلد ذكر هذا الحدث العظيم فى قصيدة هى من أروع قصائد الشعر العربى وفيها يقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

. . . . .

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت
عنك المنى حفلا معسولة الحلب

. . . . .

تدبير معتصم بالله منتقم
لله مرتغب فى الله مرتقب

رمى بك الله برجيها فهدمها
ولو رمى بك غير الله لم تصب

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت
جلودهم قبل نضج التين والعنب

. . . . .

خليفة الله جازنى الله سعيك عن
جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم نرها
تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهم
صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

هذه القصيدة الخالدة قد ظلت مصدر إلهام الشعراء العرب وتردد صداها فى الأحداث الكبرى .

ولما توجه الناصر صلاح الدين لأخذ حلب من الصليبيين نزل على قرون حماة وأنشد القاضى الفاضل :

هذى قرون حماة جئت تأخذها
وإن إمساكها يفضى الى حلب

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٢٧٠٢
الرقم الخاص : ٨١١

الـــى :

لأكتبن عن الســـلطان محتســـبا
والسيف أصـــدق ما ينبيك عن كتبى

وفى عصرنا كتب الشاعر العراقى بدر شاكر السياب قصيدة عن بورسعيد إثر العدوان عليها سنة ١٩٥٦ ومن أبياتها قوله :

حييت من قلعة شق الفضـــاء بهـــا
أسٌ لها فى صدور الفتية العـــرب

حييت فالوحش أوهى فيـــك مخلبـــه
يا غابة النـــار قـــد أثمرت بالغلب

ونجد لقصيدة عمورية الخالدة نظيرا فى الشعر العمانى يمكن أن نسميه « قصيدة سقطرى » وهى فى الجزء الأول من (تحفـــة الأعيـــان) صفحة ١٦٧ — ١٦٨ ، حين تحدث المؤلف عن عزان بن الصقر ، الذى مات سنة ثمان وستين ومائتين من الهجرة وكان مسكنه بغلافقة من عقر نزوى ومات بصحار :

« وفى أيامه رضى الله عنه خانت النصارى ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين ، فهجموا على سقطرى وقتلوا والى الامام وفتية معه ، وسلبوا ونهبوا وأخذوا البلاد ... فكتبت امرأة

من سقطرى — يقال لها الزهراء — للامام تذكر له ما وقع من النصارى ... وتستنصره عليهم فقالت :

قل للامـــام الذى ترجى فضـــائله
يا ابن الكرام ويا ابن السادة النجب

وابن الجحاجحة الشـــم الذين هـــم
كانوا سناها وكانوا ســـادة العـــرب

أمست سقطرى من الاسلام مقفرة
بعـــد الشرائع والفرقان والكتـــب

وبعـــد حى حـــلال صـــار مغتبطا
فى ظـــل دولتهم بالمـــال والحســـب

لم تبق فيها ســـنون المحل ناضرة
من الغصـــون ولا عودا من الرطب

واستبدلت بالهـــدى كفرا ومعصية
وبالآذان نواقيســـا من الخشـــب

وبالذرارى رجالا لا خـــلاق لهـــم
من اللئـــام علوا بالقهـــر والغلب

جـــار النصارى على واليك وانتهبوا
من الحـــريم ولم يألوا من السلب

إذ غادروا قاسما فى فتيـــة نجب
عقوى مسامعهم فى سبسب خـرب

مجـدلين سراعا لا وســاد لهـم
للعاديات لسـبع ضـارىء كلـب

واخرجوا حرم الاســلام قاطبـة
يهتفن بالويل والأعـوال والكـرب

قل للامــام الذى ترجى فضـائله
بان يغيث بنـات الدين والحسـب

كم مــن منعمـة بــكر وثيبـــة
من آل بيت كريم الجـد والنسـب

تدعو أباها إذا ما العلج هم بهـــا
وقــد تلقف منهـا موضـع اللبب

وباشر العلج ما كانت تضــن بـه
على الحــلال بوافى المهـر والقهب

وحــل كل عـــراء من ملابتهـــا
عن سوءة لم تزل فى حـوزة الحجب

وعن فخـوذ وسـيقان مدملجـــة
وأجعـــد كعنـاقيد من العنـب

قهـرا بغـير صداق لا ولا خطبت
إلا بضرب العوالى السمر والقضب

أقول للعـين والأجفـان تسـعدنى
يا عين جودى على الأحباب وانسكبى

ما بال صـلت ينـام الليل مغتبطا
وفى سقطرى حريم (ضرع) النهب

يا للرجـال ! أغيثـوا كل مسـلمة
ولو حبـوتم على الأذقان والركب

حتى يعود عمـاد الدين منتصـبا
ويهـلك الله أهـل الجـور والريب

وثم يصـبح دعى الزهراء صـادقة
بعـد الفسوق وتحيى سـنة الكتب

ثم الصلاة على المختـار سـيدنا
خـير البـرية مأمـون ومنتخـب

فجمع الامام الجيوش وجهز المراكب ، ويقال إنها كانت مائة مركب فساروا الى سقطرى ونصرهم الله وأخذوا البـلاد وهزموا الأعداء .

وقد كتب الامام عهدا لجنده يعتبر من أروع وثائق الأدب الاسلامى ، ولكن يضيق بنا الوقت عن قراءته فليرجع اليه من شاء فى الجزء الأول من (تحفة الأعيان) من صفحة ١٦٨ الى ١٨٣ .

فهذه ملحمة رائعة من ملاحم الشعب العمانى المجيد ، ولا يعرفها القراء العرب — والواقع أن القارىء العربى يعجب حقا حين يطلع على انجازات هذا الشعب العمانى العظيم وانتصاراته الباهرة ، فقد انتصرت عمان على جيوش أكثر من امبراطورية فى الماضى .

ولم تنتصر على أرضها فقط ، بل انها مثلا لاحقت جيوش البرتغاليين فى شرق افريقيا وهزمتهم هناك ، فكم من البلاد العربية قد حقق مثل هذا الانجاز ؟ ويحق للمرء أن يعجب كيف أمكن لعمان وهى ليست من البلاد الكبيرة أن تقوم بهذا ؟ إن شعبها شجاع قد أدرك معنى « إن تنصروا الله ينصركم » ومعنى « إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفا من الذين كفروا » .

ولعمان وضع فريد أيضا فى البلاد العربية بانجازها فى عالم الملاحة فى الماضى ، ومنها ملاح العرب الأشهر ابن ماجد .

واذا كان الجمل سفينة الصحراء العربية فان عمـان قد انطلقت بسفنها البحرية وروحها الحرة العتيدة الى ما وراء البحـار ، وكان انجازها مفخرة للعرب والمسلمين •

وأعود الى الشعر العمانى فأقول باختصار إن ديوان الستالى قصيدة مدح طويلة على الطريقة التى شرحناها وديوان السلطان سليمان قصيدة فخر طويلة يتخللها غزل أكتفى منه بهـذا المثال الرشيق :

ريـا المخلخل والمسـوّر غـادة
جمـا المرافق لا تبين عظامهـا

غراء بارعـة الجمـال فريدة
صـفرا الوشـاح لطيفة أقدامها

شمسـية قمـرية رشـئية
خوطية شـف القـلوب غرامها

أما ديوان سـعيد بن محمد القشـيرى الخروصى فهو ديوان عالم فقيه يكثر فيه من الوعظ والحث على الجهاد • به ملحمة فى حوادث عمان ، ومسائل فقهية نظمها شعرا بأسلوبه الطريف •

وأود هنا أن أشير مرة أخرى الى المنظومات المطولة مثل (جوهر النظام فى علمى الأديان والأحكام) للعلامة عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى •

فهذ تقليد تربوى انتشر فى تراثنا العربى الاسلامى ، والنظم فيه وسيلة ذكية يقدمها المدرس لتلاميذه ليسهل عليهم استيعاب مواد الدرس •

والنظم من أقرب الأشياء الى النفس العربية فكان أكبر « وسائل الايضاح » فى الماضى • وقد كتب لبعض المنظومات فى العلوم أن تخلد مثل (ألفية ابن مالك) التى طبعت الدراسة النحوية وترتيب أبواب النحو منذ عهد ابن مالك الى الوقت الحاضر ، وتخرجت بها عشرات الأجيال من الدارسين •

قلت سابقا إن العمانيين قد أكثروا من نظم العلوم فلهم ولع بالنظم وقدرة عليه • ولنذكر أن الخليل بن أحمد كان فى الأصل عمانيا ، وهو عبقرى اللغة العربية وواضع علم العروض ، وقد ظل عروض الخليل ميزان النظم العربى منذ اثنى عشر قرنا • وأسهم العمانيون باخلاص وبراعة فى نظم العلوم فصار هذا جزءا هاما من تراثهم •

ونعود الى ديوان القشيرى فنقول ان من طريف العناوين فيه « تنبيه للتجار والأغنياء » وقد يصح توجيه هذا لرجال الأعمال فى عصرنا • وقد نظم أيضا فى الطب على طريقة ذلك العصر ، فنجد « دواء نافع للبلغم » و « دواء نافع للضرس » وهذه طرائف تطلعنا على الأمراض والأوجاع التى عانى الناس منها عندئذ •

ولابد أن أذكر لكم أيضا فتوى شعرية تذكرنا بما يدور فى هذه الأيام التى يكثر الكلام فيها عن تحديد النسل فى كثير من البلاد • وقد سئل الغشرى عن حكم ما لو قام الناس بتحديد تام للنسل فى البشر ، والحيوانات ، والنباتات ، فأجاب الغشرى المفتى بأنهم إن فعلوا ذلك كانوا كفارا • (وواضح أنه يقصد كفر النعمة ، فقد طور فقهاء الاباضية ذلك التمييز الدقيق بين كفر الشرك وكفر النعمة) •

يقول الغشرى :

ماذا تقول اذا البرية كلهم
تركوا الجماع : أيكفرون؟فقل : نعم
وكذاك إن عزلوا الفحول
عن الإناث من النعم

وكـذاك إن تركوا الزراعـة كلهم
هم كافرون ، وخالفوا رب النعـم

صـدق المفتى الظريف .

ونجـد مقطوعة أيضا عن (تقوية الباه) . والمهم هنـا أن نتأمل عفـة علمائنا وعـدم تحرجهم من مناقشة الحلال ، والفرق بين هذا المستوى الرفيع وما صـار اليه الأمر فى الثقافة الغربية فى العصر الحالى .

ولا يفوتنى أن أشـير الى مقطوعة ظريفة عن عـدد الحـلال فى القرآن الذى يخبرنا الغشرى بأنه (٢٦٠٥) ! وقبل أن أترك الغشرى أقول كلمة ردا على من يعترض بان هـذا نظم وما هو من الشعر ، فأقول :

ان للقشيرى قصائد شعرية جيدة . وهو قد مات قبل مائتى سنة ، ومستوى شعره لا يقل عن مستوى ما كان يكتبه معاصروه فى مصر والعراق مثـلا . ومن التعسف أن نحـكم على انتاج عصر بمقاييس عصر متأخر عنه كثيرا .

وسأذكر مثلا من قصـيدة نظمها فى الرثاء . وقد كتب الشعراء العمانيون كثيرا فى رثاء العلماء والزهاد ، فهو رثاء

قائم على عاطفة صادقة من الحب والتقدير وليس وراءه منفعة سياسية أو مادية .

ونجد الغشرى بعد أن يوفى حق الميت من الرثاء والتقدير يخرج فى القصيدة الى آفاق أرحب . ففى قصيدته فى رثاء الشيخ سعيد بن بشير يهيب بأهل عمان ، وكان جيش العدو يتربص بهم ، فهو يقول :

لا رأى إلا أن تبيعوا أنفسا
وتجاهدوا للواحد المنّان

وتشمروا عن ساقكم وتجردوا
لسيوفكم عضبا وكل سنان

وتؤججوا للحرب نارا حرها
ولهيبها يعلو على النيران

لا يستقيم الحق يوما بالمنى
إلا بحز غلاصم الشجعان

فمثل هذه الآفاق ترفع قصيدة الرثاء الى مستويات أعلى . وكلنا يذكر دالية المعرّى الرائعة :

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نوح باك ولا ترنم شاد

وهى أصلا قصيدة فى رثاء شخص ولكنها تجاوزت ذلك وبقيت خالدة على مر الزمان .

قلت فى مطلع الحديث إن شعراء عمان كانوا صادقين مع أنفسهم ومخلصين لمبادئهم فيما طرقوه من أغراض وما تناولوه من معان ولا يتسع الوقت لدراسة الناحية الفنية فى شعرهم ، فأكتفى بأن أضرب مثلا أو اثنين :

لنتأمل هذا التشخيص الجميل فى قول حميد بن محمد بن رزيق :

يا ابن الأماجد لا زال الزمان بكم
جذلان يرفل فى أثوابه القشب

فما تبلج صبح من شمائلكم
إلا وقلت له : أهلا ، فداك أبى !

ونجد دقة الاقتباس من القرآن والحديث بسبب الثقافة الدينية القوية فى عمان . فمثلا : (فما معاقلهم عنه بمانعة) أخذ من قوله تعالى « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » وقد مر بنا مثال « العرق دساس » أخذا من الحديث الشريف . ونجد الموازنة فى مثل :

فهو غيث اذا الديـــار اضـــمحلت
واغتـــدى ربعهـــا المروهن بيـــــدا

وهـــو ليث اذا تزأرت الأســـــد
بحرب وفارق الهـــام جيـــــدا

ويبدو أنه كان من تقاليد الشـــعراء العمانيين أن يبدأوا دواوينهم بمقدمات ، كما فعل الغشرى ، وكما نجد عند ابن رزيق الذى يقول بعد التسمية : « هـــذا الديوان المسمى (سبايك اللجين) وهو قرة العين نظم الفقير وتأليفه ، محرره بيـــده الفانية وهو حميد بن محمد • • • • • ليعـــلم الواقف بذلك والحمد لله رب العالمين » •

ثم يبدأ خطبه فى ثلاث صفحات • فهذا الشاعر المتواضع عندما ذكر نفسه بأنه يحـــرر ديوانه بيـــده الفانية كان لديه احساس عميق بالزمن وامتداده وهو يذكر نفسه بقيمة أخلاقية وانسانية طيبة • وأنا أشهد ، بما رأيت من المخطوط ، أن يده الفانية كانت ذات خط بديع وقدرة على التنسيق الجميل •

وكان رجلا دقيقا يذكر فى عنوان القصيدة مناسبتها وعدد أبياتها والبحر الذى نظمت فيه والسنة التى كتبت فيهـــا • وقـــد رأيت الديوان مطبوعا من يومين دون أن يذكـــر من

« حققه » حتى القرن الذى عاش فيه ابن رزيق ! فرحم الله ابن رزيق الفنان الدقيق •

واستكمالا للحديث فى النواحى الفنية أود أن نتأمل الاستقصاء والوفرة فى قول ابن رزيق :

عزمه فى الهياج والسيف والقلب
حديد به يغل الحديدا

قد يقال : لكن فى شعرهم مبالغات وحلى لفظية من جناس وغيره •

فأقول : هذا صحيح ، لكن ليس كل جناس معيبا ، ثم يجب أن لا ننسى الزمن الذين كانوا يكتبون فيه • فهم لا يقلون عن معاصريهم من شعراء البلاد العربية •

ويبقى لشعراء عمان — بعد ذلك — صدقهم واخلاصهم لمبادئهم ، وتبقى المعانى القوية والروح العتيدة لهذا البلد الطيب ، تلك الروح التى كانت الباعث ، الأول والموجه لما حققه العمانيون من مجد وفخار •

وطبيعى أن ما ذكرته فى حديثى لا يعدو — بحكم الظروف التى شرحتها — أن يكون ملاحظات وانطباعات •

أما الدراسة العميقة الشاملة فلا بد لهـا من جمـع التراث وتصـنيفه وتوثيقه وتحقيقه ونشره على الدارسين فى عمان وخارج عمان •

ولقد سرنى أن وجدت عندما جئت الى مسقط أن وزارة التراث القومى قـد طبعت دواوين جديدة • وقد تفضلت باهدائى عـدة دواوين وكتب من منشوراتها • وأود بعـد زيارتى هـذه أن أقـرأ تلك الدواوين • وأنا أتطـلع الى أن أجـد فيها نماذج من الشعر نرى فيها ما تتميز به عمان •

فلعمان وضع فريد بين بلاد العالم العربى جميعا لأنها تقع فى نقطة الالتقاء بين البلاد العربية وشبه القارة الهندية وأفريقيا ، فقـد أتيح لها فى الماضى من الاتصال الجغرافى والثقافى الخاص ما لابد أنه طبع العمانيين بطابع مميز •

أريد أن أتبين أثر البحر والأسفار فى الشعر العمانى ، وأريد أن أتبين فى شـعر الذين سافروا حنينهم الى وطنهم عمـان •

أريد أن أتبين فى شعر الشعراء المعاصرين وصف الجبال العمانية ، وأن أستمتع بكثير من الشعر الذى تتجلى فيه سمة السماحة فى النفس العمانية ، تلك السمة التى أشـاد بهـا

الأجانب كثيرا ، وأن أتبين ما تتميز به عمان من حيـوانات ونباتات ، وأن نرى سموق النارجيل وشموخ الجبال ، وأن أشم فى شعرهم رائحة اللبان وأذوق طعم الفافاى والروبيان • وأسمع هدير أمواج خليج عمان وبحر العرب وأحس تكسرها على سواحل عمـان ، وأحس وهج صيف الشمال ووداعة خـريف الجنـوب ، وأرى ذوق العمـانيين فى الألـوان •

وفى عمان بجبالها ونباتها ، وحيوانها وأرجائها ، وربوعها وكل خيراتها معارض ألوان باهرة هى من نعم الله السنية ، وفى الألوان مظاهر لابداعه سبحانه كما نقرأ فى هـذه الآية الكريمة من سـورة (فاطر) وهى تعرض ابداع الخالق فى تنويع ألـوان الثمرات والجبـال والبشر والحيـوان :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء مـاء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جـدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كـذلك » •

« صـدق الله العظيم »

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٢١٠٢
الرقم الخاص : ٨١١

مطابع سجل العرب